



عبد الله المقبالي

أحاديث الشراع؛ صورة الغربي في عيون العربي

يبدو أن وعي العرب القدماء بأهمية الآخر المختلف، والاطلاع على ما لديه متفق تماماً مع فكرة هيجل التي تؤكد أن الآخر ضروري لوعي الذات، وبدونه ليست الذات شيئاً، لأنها لا تعي نفسها إلا بمقدار ما تعي الآخر. هذه النظرة متحققة تماماً، حين ننظر إلى ما أورده الباحث السوري شمس الدين الكيلاني في مقاله في مجلة التسامح - التفاهم العدد السابع (صورة أوروبا عند رحالة أندلسيين) عن آراء حكيم الأندلس وشاعرها، يحيى الغزال، وكذلك إبراهيم الطرطوشي. لم ينس الكيلاني في مستهل دراسته البانورامية، والغنية بالفوائد أن يلفت انتباه القارئ الكريم إلى المصادر التي اعتمد عليها. فهو يذكر دور ابن دحية صاحب كتاب المطرب في أشعار أهل المغرب، والمقري صاحب نفع الطيب، في حفظ آراء يحيى الغزال الثمينة التي دونها إبان ابتعائه سفيرا من قبل عبد الرحمن بن حكم أمير قرطبة. كما يذكر دور البكري والقزويني وآخرين في تدوين ما وصل إلينا من أخبار عن سفارة إبراهيم الطرطوشي إلى أوتو في مجديبرج.

والدقيق. ويذكر الطرطوشي ما يسميه مدينة النساء، التي سمع بها أثناء إقامته في بلاط أوتو. فمدينة النساء هذه فيها نساء بساطت وممالك، وهن يحملن من عبيدهن، فإذا وضعت المرأة ذكراً قتلته، وتبقي على الأنثى. ومما يذكره لهم وقوع بلاد ويسو (روسيا البيضاء) في الظلام حتى لا يرى أهلها النهار أبداً ثم وقوعها في النور حتى لا يروا الليل أبداً. ويسرد لنا من غرائب الصرب أنهم يحتفلون بالميت عند حرقه، ثم تقطع النساء أيديهن ووجوههن بالسكاكين، وإن كانت منهن مخلصه في الحب للميت فإنها تعلق نفسها حتى تموت، فتحرق معه.

إيراد أخبار النساء: يورد الكيلاني قصة الغزال مع زوجة ملك النورمان، التي عشقته، وأجزلت له العطاء، وكانت له معها مغامرة عاطفية أوقفها بعد نصيحة أصحابه. كما ينقل الكيلاني عن الطرطوشي أحوال النساء والزيجات في مشقة (بولونيا)، التي كان ملكها يتكفل بمصاريف الزواج. الاهتمام بالحياة الاقتصادية: مما اهتم به الرحالة الأندلسي أثناء زيارته لأوروبا الحياة الاقتصادية في البلاد التي يزورها، فنجد الطرطوشي على سبيل المثال يذكر فراغة (براغ) أنها أكثر البلاد متاجر، ويصورها أنها مركز تجاري دولي، ويحدد عملتهم (المثاقيل المرقطية). وعند حديثه عن الصقالبة يبين أن مصدر جوعهم ليس الجذب والقحط بل من كثرة الغيث وتوالي الجمة (الماء).

لقد سعى شمس الدين الكيلاني من خلال دراسته، إلى تقديم رؤية بانورامية عن أوروبا مستخدماً الأخبار الواردة عن رحلتي يحيى الغزال وإبراهيم الطرطوشي، ولم يتعرض لابن فضلان ربما لأن أخبار رحلته شائعة ومعروفة. وكان الكيلاني حقيقياً حين تجنب التعرض للتناقضات التي يوردها الرحالة، مكتفياً بذكر الخبر دون التعليق عليه، ومن ذلك على سبيل المثال ما أورده عن ثقل المهر في بلاد الصقالبة، حيث يصبح من له بنتان فأكثر غنياً، ومن له ولدان فأكثر فقيراً، وفي المقابل يذكر أن الملك كان غالباً ما يتكفل بنفقة الزواج ويدفع المال للعروسين.

المصدر وكذلك طول الرحلة. فها هو الطرطوشي يصف بلاد «ناقون»، وهي إحدى بلاد الصقالبة، حيث يشير إلى أن مدينة ناقون حاضرة المملكة الرابعة، وعليها حصن يسمى غراد، مقابله حصن على بحيرة عذبة، ومن هذا الحصن إلى البحر المحيط (البطريق على الأغلب) أحد عشر ميلاً، وأراضيها مليئة بالمروج والأجام والطين، ويجاور هذه المملكة من الغرب سكسون شمال غرب ألمانيا حالياً، وكذلك يصف بحر ورنك، وهو أقصى موضع في الشمال، البرد فيه عظيم، والهواء غليظ، والتلج دائم، ولا يصلح للنبات ولا للحيوان، قلما يصل إليه أحد من شدة البرد والظلمة والتلج. وعند الغزال أورد الكيلاني وصفه للجزيرة التي كان يسكنها ملك النورمان، «فهي جزيرة عظيمة في البحر المحيط، فيها مياه مطردة، وجنات، وبينها وبين البر ثلاثة مجار....»

تقديم البيانات الديموغرافية والأنثروبولوجية عن السكان المحليين: فالكيلاني اهتم باستخلاص نظرة الرحالة إلى الإنسان في أوروبا، فيورد مثلاً وصف الغزال للنورمان بأنهم من «المجوس»، يعبدون الأوثان لما يعتقدوا المسيحية بعد، وأنهم في قتال مع المسيحيين، كما يصف الطرطوشي فرسان ناقون بأنهم شجعان ولهم سلاح شاك من الدروع والخوذ، والسيوف. وفي موضع آخر يصف البروسيين بأن لهم لساناً خاصاً لا يعرفه غيرهم. ويصف الصقالبة قائلاً: «إنهم ذوو صولة وبطش». ويصف الطرطوشي أيضاً البوهيميين مستغرباً «ومن العجب أن أهل بويمة سمر سود الشعور، والشقرة فيهم قليلة». ويورد كيلاني اهتمام الغزال والطرطوشي بأصول سكان البلاد التي يزورونها فيصف الغزال أصول الفرنجة الذين هم أبناء يافث جميعاً، والصقالبة عند الطرطوشي هم أبناء مازاي بن يافث.

الافتتان بالغرانيبي: وهذا الأمر من خصائص أدب الرحلة عامة، ولعلها سجية في الإنسان تدفعه للولع بالغريب والبحث عن كل مثير ومختلف. مثلاً يذكر الطرطوشي عند وصفه مدينة بويمة (بوهيمية) أن سكانها يتعاملون بالناديل كتعاملهم بالعملة، ويتعاون بها الحنطة

أهمية هذه الدراسة تتجلى في جوانب عدة، منها: تأكيدها حرص العرب القدماء - أهل الأندلس خصوصاً - على التواصل مع الآخر بغض النظر عن الأسباب التي دفعتهم لذلك. كما أن هذه الدراسة استطاعت إثبات احترام العربي «الأندلسي» للآخر، حتى وإن كان خصماً عسكرياً، أو عدواً لدوداً. فالغزال أو الطرطوشي يصف الواحد منهم البلاد التي يدخلها، وأجنادها وجيشها، ونساءها، وعقائدها، ولا يبخل بالمدح على من يرى أنه مستحق لذلك. ومن محاسن هذه الدراسة أيضاً، تسليطها الضوء على نظرة العربي إلى الأوربي في فترة مبكرة، كانت الغلبة فيها للعربي. أشبيلية كانت البوابة الأولى التي ولجت أشرعة النورمان السود منها إلى بلاد الأندلس غازية لكن المغامرة توقفت بعد أن دمر الأندلسيون سفنهم أثناء عودتهم إليها، مما اضطرهم إلى مفاوضات مع المسلمين وتبادل الأسرى. انتهت هذه الحادثة لكن علاقة من نوع آخر بدأت، مهدت الطريق لاكتشاف أوروبا. وقد برع الكيلاني في استخلاص فوائد الرحلتين مركزاً على أمور عدة منها:

التعريف بالرحالة وذكر أخباره: فهو يخبرنا عن يحيى بن الحكم البكري، وصفاته ووظيفته وسبب تلقيبه بالغزال، ووقت مولده ووفاته، وعمره ووقت الرحلة، وكذلك وصف لنا إبراهيم بن يعقوب القرطوشي الذي كان يهودياً، تاجرًا عاشقًا للكتب متأثرًا بالعرب والمسلمين.

وصف الطريق: حرص الكيلاني على ذكر الطريق الذي تتبعه يحيى الغزال، والمصاعب التي مر بها، فنجد أنه يذكر لنا مغادرة الغزال للأندلس وركوبه بحر المانش، وهيجان هذا البحر، حتى شارف الغزال ومن معه على الهلاك، فيورد لنا أشعاراً منسوبة له نقلًا عن ابن دحية تصور هذه المعاناة. وكذلك يبين لنا رحلة القرطوشي التي كانت طويلة، عبرت وسط أوروبا وشمالها، مروراً ببولونيا والتشيك والسلوفاك والمجر وألمانيا، وأوكرانيا، وملك الروم وبلاد الصقالبة «السلاف».

الوصف الجغرافي: عني الكيلاني بتتبع الوصف الجغرافي الذي نقل عن رحلتي الغزال والطرطوشي أيما عناية، خصوصاً ذلك الذي ورد في رحلة الطرطوشي باعتبار توفر